

المصاحف

١٣١٥

مصر في يوم السبت ٩ جمادى الآخرة سنة ١٣١٧ الموافق ١٤ أكتوبر سنة ١٨٩٩

﴿ حجج مثبتة الكرامات ﴾

ذكرنا في مقالة سابقة حجج منكري الكرامات وبحثنا فيها ونذكر في هذه المقالة حجج المثبتين وننظر فيها وهي خمس على ما استقصاه السبكي (الحجة الأولى) هي ما عبر عنها بقوله «أحدها وهو أوحدها ما شاع وذاع بحيث لا ينكره إلا جاهل معاند من أنواع الكرامات للعلماء والصالحين» وفي هذه الحجة أن ما نقل من الأمور التي سموها كرامات على ضربين أحدها ما فيه خرق لنواميس الكون ومخالفة لسنن الخلق التي ثبت في القرآن وفي العلم الطبيعي أنها لا تتغير ولا تتبدل وهذا النوع قليل جدا ولا يكاد يثبت منه شيء برواية صحيحة توجب الظن الا قليلا. والظن في هذا المقام لا يعني قتيلا لمعارضته للقطعي. ثانيهما ما ليس كذلك كمكاشفة وشفاء مرض وقضاء حاجة وهذا النوع هو الذي شاع وذاع. وملا الأسماع. وطاف في سائر البقاع. وكما يكثر هذا ويقل، وأقبله فيما نقل عن صالحى هذه الأمة. كذلك الشأن فيما نقل عن سائر الأمم وسيأتي بيانه (الحجة الثانية) قصة مريم من جرة حبلها من غير رجل وحصول

الرطب الطري لها من الجذع اليابس وحصول الرزق عندها في غير أوانه من غير حضور اسبابه كما أخبر الله تعالى عنها بقوله (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم اني لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) وبين السبكي بعد ما ورد هذا انها لم تكن نية قتمين ان يكون ما جرى لها من الكرامة . ونقول نحن في هذا المقام ان لله تعالى في خلقه آيات تدل على ان قدرته تعالى حاكمة على سنن الكون لا محكومة بها . وقد قال تعالى « وجعلنا ابن مريم وامه آية » فجعلها على غير النحو المعهود في الخلق ليس لها فيه كسب ولا عمل بوجه ما بل كانت كارهة له فان كان يمد مما نحن فيه فقصارى ما يدل عليه جواز وقوع مثله وهذا هو مراد السبكي وغيره بالاستدلال به وبتحويه مما يأتي . أما الوقوع بالفعل فلا يثبت الا بدليل قطعي . كالمشاهدة وكنص القرآن أو الخبر المتواتر تواتراً حقيقياً مستنداً الى الحس الذي لا شبهة فيه . قال بعض المحققين لو كان ما ينقله قومنا من الكرامات التي لا تحصى واقعا حقيقة لما احتاجوا في اقناع المعتزلة الى الاستنباط من الآيات بالوجوه الخفية التي لا تقيد المطارب ولا ثبت المدعى وهوان الخوارق واقعة فعلا على أيدي الصالحين بل كانوا يفتقون أعينهم بكرامة واحدة من تلك الكرامات التي لا تحصى . وان المتأخرين ليعدون اولياء تلك الازمنة التي هي فيها وطيس الجدال بين سلفهم والمعتزلة بالالوف . أما وجه الآية في ابن مريم النبي وأمه المختلف في نبوتها فهو ان الاقسام العقلية في خلق الانسان أربعة (الاول) ما كان بغير واسطة ذكر ولا انثى وقد خلق الله تعالى آدم اول البشر كذلك (الثاني) ما كان بواسطة ذكر فقط وكذلك كان خلق أمنا حواء (الثالث) ما كان بواسطة ذكر

وأنتى وهو الناموس العام والسنة الالهية المطردة. ولما نفذت قدرته تعالى في الاقسام الثلاثة اراد ان ينفذها في القسم (الرابع) وهو ما كان بواسطة انتى فقط ليعلم من بلفه ذلك بالخبر الصادق ان قدرة الله تعالى حاكمة على نواميس الكون لا محكومة بها. وان الله هلى كل شيء قدير فلا يعتمد فيما وراء الاسباب الظاهرة التي اناط بها الامور الا عليه وحده. فانجلى بهذا ان هذه الآية الالهية ليست مما نسميه كرامات الاولياء فلا تصدق انتى غيرها بمثله

وأما حصول الرطب الطري من الجذع اليابس فهو ليس في القرآن وانما المذكور في القرآن قوله تعالى « وهزى اليك بذرع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً » وهو يصدق بالنخلة المشمرة بل هو المتبادر ولو كان الجذع يابساً لوصف باليبس لاظهار الآية . ومثل هذا يقال في مسألة الرزق فان قولهم ان زكريا كان يجرد عند مريم فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ليس في القرآن ما يدل عليه وانما فيه انه كان يجرد عندها رزقا وقد سألها (أنى لك هذا) حيث كان هو الكافل لها والقائم بالانفاق عليها (قالت هو من عند الله) ومثل هذا الجواب معتمد من المؤمنين فما من أحد منا الا وقد رأى في بيته في وقت ما رزقا لم يكن يتوقع وجوده وسأل عنه فأجيب من أهله بمثل « الله بعثه » وقوله (ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) لا يستلزم ما ذكره لانه يصدق بالهدية والهبة من حيث لا تنتظران وقد قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وهو يصدق بتهيئة الاسباب التي لم تكن في حساب الانسان ايضا وليس المعنى ان يرزقه بالكرامات وخوارق العادات. ومن المفسرين من قال ان معنى الحساب في الآية الاستحقاق . وهذا وان وجود فاكهة الصيف في الشتاء ليس من

الخوارق كما لا يخفى على الخبير . رب معترض يستدل بقوله تعالى « هنالك دعا
 زكريا ربه قال رب هب من لذك ذرية طيبة » على ان ما رآه عند مريم
 كان من خوارق العادات ولذلك طلب من الله تعالى ان يمنحه كما منحها
 ويهب له الذرية على كبر سنه ويأس أهله . ونقول في الجواب ما كان لمؤمن
 ان يقول ان نبياً علم جواز خرق العادة من ولي او ولية فحمله ذلك على طلب
 مثله لنفسه وان كان يقضيه كلام طائفة من المفسرين . ويكفي لاثارة ذلك
 الدعاء في نفس سيدنا زكريا عليه السلام عند مريم سماعه اسنادها الرزق لله
 تعالى والثناء عليه بلطفه بعبده حيث يرزقه بغير حساب فان المؤمن الحكامل
 كلما سمع ذكر الله والثناء عليه تنمو عظمتة في قلبه وكلما رأى انعامه على
 خلقه يزيد رجاؤه في فضله وكرمه . وحسبنا في هذا الجواب بيان ان الدعاء
 لا يقضي ان يكون ما رآه من الخوارق وان كان لا ينفيه أيضاً . وسيأتي الكلام
 على ماروي في تفسير الآيات لان كلامنا الآن في الدليل القطعي

انترف بعض منكري وقوع الكرامات بان ما وقع لمريم (عليها السلام)
 من الخوارق وأجابوا عنه بجوابين احدهما انها كانت نبية . ونقل السبكي عن
 القاضي انه قال (لم يقم عندي من أدلة السمع في امر مريم وجه قاطع في نفي
 نبوتها او اثباتها) وأنى يقوم له الدليل وهو على رأي من يقول ما جاز ان
 يكون معجزة نبي جاز ان يكون كرامة لولي وهؤلاء لم يجعلوا فاصلا بين
 النبي والولي ان دعوى النبوة والتحدي بالحارقة والا فخطاب الملائكة لمريم
 وأمرهم اياها عن الله بالركوع والسجود أوضح دليل على نبوتها فان هذا
 تشريع وقد قالوا ان النبي هو من أوحى اليه بشرع يعمل به فان امر بأن
 يعلمه الناس كان نبياً ورسولا . واذا لم تكن مريم نبية كما هو رأي الجمهور

الذين يشترطون في النبي الذ كورة فكرامتها الحقيقية هي كلام الملائكة .
وكهذا ليس من خرق السنن الالهية ولكنه من خرق العوائد بالنسبة لمجموع
البشر لانه مما اختص الله تعالى به طائفة من خلقه أهلهما له باستعداد روحاني
مخصوص والله يختص برحمته من يشاء . و (الجواب الثاني) ان ما وقع لمريم
كان اما معجزة لذكرا واما ارهاصا لعيسى عليها السلام والارهاص عندهم
ما يتقدم بعثة النبي من الخوارق لتمتد النفوس لقبول الرسالة وتصديق الدعوة .
وأجيب عن الشق الاول بان المعجزة للنبي هي ما يصدر على يده لا على يد
غيره وعن الثاني بمثل هذا وهو ليس بسديد لان ما يحصل للأم يصح ان
يكون تمهيدا لتصديق دعوة الابن لاسيما اذا كانت الخوارق محتفة بحمله
وولادته متعلقة بشؤونه . وقولهم (لو جاز هذا لجاز ان تكون كل معجزة لنبي
ارهاصا انبي آخر يأتي بعده فيمتنع الاستدلال بها على نبوته) ممنوع فانه
انما يتحدى بها مستدلا على صدقه فيما يبدؤه عن الله تعالى . وعجيب من
السبكي وامثاله كيف غفلوا عن هذا .

قال السبكي وقريب من قصة مريم قصة ام موسى وما كان من الهام
الله اياها حتى طابت نفسها بالقاء ولدها في اليم الى غير ذلك مما خصت به .
قال امام الحرمين ولم يصر احد من اهل التواريخ ونقله الاقاصيص الى انها
كانت نبية صاحبة معجزة . اه ونحن لا نرتاب في ان الالهامات الصادقة
هي مما يكرم الله تعالى بها اصحاب الارواح الطاهرة والنفوس الزاكية من
عباده . وهذا من خوارق المادة بالنسبة الى الجمهور ولكنه ليس خارقا
لنواميس الطبيعية ولا مخالفا للسنن الكونية . وهكذا تكون الكرامات الحقيقية
(الحجة الثالثة) التمسك بقصة اصحاب الكهف - قال السبكي فان

لبهم في الكهف ثلاثمائة سنة او ازيد من غير آفة مع بقاء القوة العادية بلا
غذاء ولا شراب من جملة الخوارق ولم يكونوا انبياء فلم تكن معجزة فتعين
كونها كرامة. وادعى امام الحرمين اتفاق المسلمين على انهم لم يكونوا انبياء
وانما كانوا على دين ملك في زمانهم يعبد الاوثان فأراد الله ان يهديهم فشرح
صدورهم للاسلام ولم يكن ذلك عن دعوة داع دعاهم ولكنهم لما وفقوا
تفكروا وتدبروا ونظروا فاستبان لهم ضلال صاحبهم ورأوا ان يؤمنوا بقاطر
السموات والارضين ومبدع الخلائق اجمعين. ثم اسهب في بيان انهم لم
يكونوا انبياء. وفي هذه الحجة ابحاث (١) ان اصحاب الكهف كانوا من
آيات الله تعالى لقوله تعالى « ام حسبك ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من
آياتنا عجايب وقواه تعالى بعد ذكر حالتهم في الكهف (ذلك من آيات الله)
فليس هذا مما نحن فيه كما سبق القول في حبل مريم عليها الرضوان ويوضحه
البحثنان التاليان له (٢) ان قوله تعالى « ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا
تسعا » هو من حكاية اقوال المختلفين فيهم صرح بهذا المفسرون ويرجحه على
قول من قال انه اخبار من الله تعالى امران « احدهما » ان الله تعالى عندما قص
نبأهم بالحق قال (فضر بنا على آذانهم في الكهف سنين عددا) قال البيضاوي
وغيره وهذا يحتمل التكثير والتقليل وانما ذكر التحديد في العدد في سياق
حكاية اقوال الخائفين في قصتهم و (ثانيهما) انه عقب على هذا القول بقوله
تعالى (قل الله اعلم بما لبثوا له غيب السموات والارض) وهو كالصرح في
انه غير صحيح (٣) قلنا في كتابنا (الحكمة الشرعية) ان مقتضى كلام امام
الحرمين انهم كانوا مشركين ثم هدام النظر الى رفض الشرك واعتقاد توحيد
الله تعالى كما هو ظاهر القرآن. وعلى هذا هل تتحقق في حقهم الكرامة التي

اشترطوا فيمن تظهر على يديه ان يكون مؤمنا ظاهر الصلاح - وعرفوا الصلاح بالقيام بحقوق الله تعالى وحقوق العباد ؛ وهذا لا يعرف الا بالشرع لاسيما عند الاشاعرة - وامام الحرمين من اجل ائمتهم والسبكي من اكبر علمائهم - الذاهبين الى انه لاحكم قبل الشرع لافي الاصول ولا في الفروع (٤) يروى عن ابن عباس (رضي الله عنهما) انهم كانوا بعد الايمان على شريعة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام - وليس عندنا دليل على انهم كانوا بعد عيسى او في زمنه واكثر ما ينقل عن ابن عباس في التفسير لا يصح عنه - وربما كانوا في زمن تختلف احواله الطبيعية عن هذه الازمنة والله اعلم

(الحجة الرابعة) مما اورده السبكي التمسك بقصص شتى مثل قصة اصف بن برخيا مع سليمان عليه السلام في حمل عرش بلقيس اليه قبل ان يرد اليه طرفه على قول اكثر المفسرين بأنه المراد بالذي عنده علم من الكتاب وما قدمناه عن الصحابة (*) ومما اورده عن بعدهم من الصالحين وخرج عن حد الحصر انه اقول كان من حقه ان يجعل ما استنبطه من قصص الكتاب حجة واحدة وما ورد في غيره حجة واحدة لان التعدد انما هو في الجزئيات ولكنه اراد التكرير ليجمع حجج الاثبات بعدد حجج الانكار والشق الثاني من هذه الحجة هو عين الحجة الاولى - اما قصة الذي عنده علم من الكتاب فلا نهض حجة لاحتمال انه كان نبيا او ان الاتيان بالعرش معجزة لسليمان اثبت بها نبوته للملكة سبأ ولا ينافي هذا انه جاء على يد غيره لان ذلك الغير

(*) هو ما اشرنا اليه في الحجة الخامسة من حجج التكرير ووعدنا بسر ذلك

الكرامات التي اسندها اليهم والبحث فيها عند ذكر حجج الاثبات ولكن قد طالت هذه المقالة فاضطررنا الى تأخير ذلك لمقالة اخرى

من اتباعه وهو الذي امره به فكان آية من الآيات التي اعطاه الله اياها
 قد استتبعت آية اخرى . ويدل على ان الايات بالعرش من نعم الله على
 سليمان عليه السلام شكره لله تعالى عليه (فلما رآه مستقراً عنده قال هذا
 من فضل ربي ليبلوني الأشكر أم الكفر) فلا يأتي هنا قولهم ان المعجزة لا بد
 ان تظهر على يد النبي نفسه . قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى (قال يا أيها
 الملأ أئكم يأتي بعرشها) مانصه (أراد بذلك ان يريها بعض ما خصه الله به
 من العجائب الدالة على عظيم القدرة وصدقه في دعوى النبوة) . ومن
 المفسرين من قال ان الذي عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه قال
 البيضاوي فيكون التعبير عنه بذلك للدلالة على شرف العلم وان هذه
 الكرامة كانت بسببه . وقال بعضهم انه جبريل او ملك اخر

فتلخص مما تقدم ان قصارى ما يحتاج به من الايات الكريمة ان الله اكرم أم
 موسى بالالهام الصحيح واكرم السيدة مريم بكلام الملائكة وليس في شيء
 من هذين الامرين مخالفة لسنن الله تعالى في الخلق . وان لله تعالى في خلقه
 آيات لا تنطبق على سنن الكون المعروفة كحبل مريم وولادتها من غير
 افتران برجل وكالضرب على اذان اهل الكهف سنين عددا . فأما الالهام فانه
 لا يزال يقع في كل عصر لاصحاب النفوس العالية فهو كرامة اختصاص بها من
 دون سائر الناس واما كلام الملائكة للناس فلم يثبت لغير الانبياء به وجه قطعي
 الا اريم فان كانت غير نبيه فهو كرامة قطعية لها تدل على جوازه لغيرها
 وورد في آثار ظنية وقوع ذلك لغيرها . ولعل كلامهم لغير الانبياء من قبيل
 الالهام . وقد وفينا هذا البحث حقه في كتابنا الحكمة الشرعية . واما الايات
 الاخرى فانها توجد في كل عصر ويسمى بالفلاسفة (فلتات الطبيعة) والمؤمن

يستدل بها على قدرة الله تعالى ولا يستنكر ان يكون لها اسباب خفية لم يطالع
الله تعالى عليها عباده (وما أوتيتم من العلم الا قليلا)

باب التربية والتعليم

ورد الينا ما يأتي من حضرة الكاتب الفاضل عبد العزيز افندي محمد وكيل النيابة
في محكمة الزقازيق فاقيناه بالقبول مقرين بفصله شاكرين له سعيه وهو
حضرة الاستاذ الفاضل صاحب مجلة المنار المفيدة

لما رأيت ان مجلتكم التي هي مجني الفوائد العلمية ومانقى الشوارد الحكمية قد
وسعت في صفحاتها مكانا لنشر ما يختص بالتربية والتعليم ورأيتم تنفقون من ذلك أقوم
الطرق وأجلها أرى رجوت ان تفضلوا علي بتخصيص موضع وان صغيرا منها أقدم فيه
لقراء هذه المجلة كتابا جليلا في التربية العمالية أنا مشتغل بنقله من الفرنسية الى
العربية وأود نشره فيها تابعا . الكتاب من تصانيف المحكم المربي الفونس اسكرويس
سماه (أميل القرن التاسع عشر) عارض به الحكيم الشهير جان جاك روسو في كتابه
المؤلف في التربية المسمى (أميل القرن الثامن عشر)

هذا الكتاب النفيس حكي فيه مؤلفه حكاية زوجين فرنساويين قضى عليهما الله
بالتفريق لسجن الزوج في فرنسا بسبب جريمة سياسية على ما يظهر واغتراب الزوجة في
انكلترا وقد شعرت الزوجة في أوائل أيام الفراق انها حلي فأخذت تكتب زوجها
ويكاتبها في طرق التربية اللازم اتباعها في شأن الولد وقد تضمنت هذه الرسائل من تلك
الطرق أحصها واكفلها بوصول الانسان الى السعادة ولا أريد ان اطيل في وصفها في
الاطلاع عليها غناء

وفي هذا المقام يجب علي ان أحص الشكر لحضرة الاستاذ الاكبر صاحب الفضيلة
الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية فانه حفظه الله هو الذي نبهني الى هذا الكتاب
المفيد وحتى علي ترجمته ونشره كما هو شأنه في الارشاد الى كل ما ينفع الامة والوطن فجزاه